نقد النقد

من النقد الأدبي إلى تحليل الخطاب

نقد النقد

من النقد الأدبي إلى تحليل الخطاب

محمد بوعزة

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

بوعزة، محمد

نقد النقد: من النقد الأدبي إلى تحليل الخطاب/ محمد بوعزة.

480 صفحة؛ 24 سم.

يشتمل على ببليوغرافية (ص. 447-456) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-705-4

1. الأدب العربي - تاريخ ونقد. 2. النقد - البلدان العربية. 3. النقد الأدبي. 4. الأدب - تاريخ ونقد. 5. التحليل اللغوي. 6. الخطابة - تحليل. أ. العنوان.

892.709

العنوان بالإنكليزية

Critique of Criticism: From Literary Criticism to Discourse Analysis

by Mohammed Bouazza

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 837 991 1 00961 فاكس: 00961 1991839
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى
بيروت، تشرين الأول/ أكتوبر 2025

"لا يوجد برادايم قادر على حل جميع المشكلات التي يحددها"

توماس كُون

"لا يمكن للنظرية، بوجيز العبارة، أن تصل إلى درجة الكمال"

إدوارد سعيد

"المنهج لا ينفصل عن مجموعة من العلاقات تقودها السلطة أو القوة وتحركانها"

إدوارد سعيد

إهداء

إلى عصام

شمعة في الظلام

المحتويات

ملخص تنفيذي 13

مقدمة: في الحاجة إلى الوعي النقدي 21

مدخل: نقد النقد–الاستراتيجيات والسياقات 33

أولًا: تقاطعات وتوترات 34

ثانيًا: النقد: من النموذج إلى النسقية الدينامية 44

ثالثًا: خطابات متنافسة وممارسات انتهاكية 55

القسم الأول
الأيديولوجيا

الفصل الأول: أدلجة نقد النقد 73

أولًا: نقد النقد: أولوية الممارسة 73

ثانيًا: أدلجة وظيفة نقد النقد 75

ثالثًا: تمايز في الأدوار لا انفصال أو إدماج 79

الفصل الثاني: نقد النقد–جدلية الإبستيمولوجي والأيديولوجي 87

أولًا: نقد النقد–الواقع والممكن 89

ثانيًا: لماذا محمد مندور؟ 99

ثالثًا: المنهج – تشييد الحقل الثقافي 109
رابعًا: جدلية النظرية والممارسة 118
خامسًا: توترات الأيديولوجيا والإبستيمولوجيا 125

القسم الثاني
الإبستيمولوجيا

الفصل الثالث: نقد النقد علمًا للنقد الأدبي 133
أولًا: حدود ومبادئ 137
ثانيًا: مفارقات وتفكيكات 142
ثالثًا: من الإبستيمولوجيا إلى الهرمينوطيقا 149

الفصل الرابع: نحو إبستيمولوجيا جهوية للنقد 161
أولًا: نقد النقد/ إبستيمولوجيا خاصة 164
ثانيًا: سمات النموذج 166
ثالثًا: حدود الإبستيمولوجيا الوضعية 171
رابعًا: جهوية النقد الأدبي 176
خامسًا: نمذجة الخطاب النقدي العربي 182
سادسًا: تشريح نقدي أم تأبين ثقافي؟ 193
سابعًا: أخلاقيات النقد 200

الفصل الخامس: جدلية البنية والتاريخ في الخطاب النقدي 213
أولًا: تمثيلات طه حسين 216
ثانيًا: نحو قراءة نسقية 219
ثالثًا: تاريخانية القراءة 232
رابعًا: من الكلية إلى النسقية الدينامية 239

الفصل السادس: الخطاب النقدي-جدلية النسقي والسياقي 247
أولًا: السياق-من المادية التاريخية إلى المادية الثقافية 249
ثانيًا: النسق-من تحليل الثقافة إلى تحليل الخطاب النقدي 259
ثالثًا: الصيرورة-إكراهات الخطاب 268

الفصل السابع: حدود الشعرية-النسق وتحدي الانتهاك 275
أولًا: استراتيجية الخطاب 276
ثانيًا: الرؤية والمنهج 281
ثالثًا: موضعة النظرية في الممارسة 287
رابعًا: من شعرية العلامة إلى حفريات الأثر 293

الفصل الثامن: شعرية الرحلة - جدلية السردي والثقافي 297
أولًا: الإشكالية الأجناسية - انتهاك الحدود 304
ثانيًا: شعرية السرد الرِّحلي 315
ثالثًا: من البنيوية إلى الشعريات الثقافية 326

القسم الثالث
التأويلية

الفصل التاسع: النص بين انفتاح التأويل ومتاهة التفكيك 333
أولًا: مغامرة النص 337
ثانيًا: من نسقية العقل إلى تفكيكية النص 348
ثالثًا: التفكيك والهرمينوطيقا - توترات الحدود 355
رابعًا: درس التفكيك - النص والتأويل والسلطة 361

الفصل العاشر: جدلية النص والتأويل في القراءة النقدية 367
أولًا: سياقات وإبدالات 368
ثانيًا: الوعي النقدي – استيعاب وتجاوز 373
ثالثًا: عنف المتخيل – شعرية الانتهاك 380
رابعًا: من الشعرية إلى الهرمينوطيقا 391
خامسًا: من النسق إلى التفكيك 397

الفصل الحادي عشر: التأويل الثقافي للنظرية 405
أولًا: استراتيجية الخطاب 408
ثانيًا: الاستدلال الإبستيمولوجي 412
ثالثًا: النموذج الذهني – خطاطة الإنتاج الروائي 417
رابعًا: النص بين آلة المنطق واحتمالات التخييل 424
خامسًا: تأويل النظرية 428

خاتمة: سياسات النظرية 433
المراجع 447
فهرس عام 457

ملخص تنفيذي

يندرج كتاب **نقد النقد: من النقد الأدبي إلى تحليل الخطاب** في خطاب نقد النقد؛ فهو يدرس أعمالًا نقدية تتوزع بين نقد النقد والنقد الأدبي. وفي سياق هذه القراءة النقدية، يتناول بالتحليل والتفكيك أهم الإشكاليات التي واجهت نقد النقد والنقد الأدبي العربيين منذ بداية ثمانينيات القرن العشرين، وهي الفترة التي تميزت بانفتاح النقد الأدبي العربي بشكل قوي على المناهج النصية والبنيوية الغربية، وعلى المنهجية الإبستيمولوجية في مجال نقد النقد. ويمكن القول بأن أهم هذه الإشكاليات تتعلق بملاءمة المرجعيات النظرية المستعارة، وبكيفية تلقّي النقد الأدبي العربي المناهج النقدية الغربية، والتحديات التي تواجه النقاد العرب في محاولاتهم بناء نموذج خاص بهم في قراءة الأدب العربي، تتحقق فيه شروط الملاءمة الإبستيمولوجية والثقافية التي يفترضها المجال التداولي للنصوص العربية، حتى لا يتحول الناقد العربي إلى "مجرد وكيل للغرب يبيع بضاعة مستوردة".

ولعل أهم ما يشير هذا الكتاب إليه هو الوعي النظري والمنهجي بالسياقات المتعددة والمعقدة للنقد العربي في علاقته بالنظرية الغربية؛ فهو يصدر عن رؤية منهجية تقترح تصورًا جديدًا لوظيفة نقد النقد، مبنية على مراجعة نقدية لممارسة نقد النقد في الخطاب النقدي العربي المعاصر.

الإشكالية

يطمح الكتاب إلى اقتراح نموذج جديد في قراءة نقد النقد والنقد الأدبي عمومًا. ويشدد على أهمية خطاب نقد النقد في تطور النقد العربي الحديث والمعاصر،

بوصفه التجسيد العملي للوعي النقدي الذي يُعَدُّ شرطًا لا غنى عنه لأي ممارسة نقدية تراهن على تحقيق إنتاجيتها المعرفية وأصالتها الثقافية، ولا تكون مجرد إعادة إنتاج أو استنساخ للنظريات الأدبية والمناهج النقدية الغربية التي تتدفق على حقل النقد الأدبي العربي، وتقوم بإسقاطها على الأدب العربي من دون وعي نقدي يمحّص المفاهيم ويستنطق سياقات إنتاجها وتلقّيها.

التحديات والرهانات

يحاجُّ المؤلفُ في أطروحته النقدية، في الحاجة الملحة إلى تفعيل خطاب نقد النقد في قراءة منجزات النقد العربي المعاصر وتقييمها بالوضع الإشكالي للنقد العربي؛ فهو لا يمتلك نموذجه الخاص في دراسة الأدب العربي، الذي يستمد معظم نظرياته ومناهجه ومفاهيمه ومصطلحاته من النظريات الأدبية والمناهج النقدية الغربية، المستنبَطة من تقاليد الأدب الغربي الذي يمتد في تاريخ مختلف عن تاريخ الأدب العربي. وهذا ما يضع النقد العربي في مواجهة مجموعة من التحديات الإبستيمولوجية والثقافية التي تؤثر سلبًا في أداء وظيفته النقدية لتأصيل نموذج نقدي في قراءة الأدب العربي يلائم خصوصيته الأدبية والثقافية، ولا يتعالى على شروط إنتاجه وتلقّيه، ولا يفرض عليه مقولات نقدية وتوصيفات جمالية مستعارة من المرجعيات الغربية. ويحصر الكاتب أهمَّ هذه التحديات المعرفية في ما يلي:

– التراكم المهم الحاصل في المنجز النقدي العربي منذ ثمانينيات القرن العشرين، التي عرفت انفتاح النقد العربي بشكل قوي على المناهج الغربية الجديدة. ويبرّر النقاد العرب هذا الانفتاح بأن هذه المناهج الجديدة هي السبيل إلى تطوير النقد العربي وتجديد أدوات قراءة الأدب العربي وتلقّيه، فإلى أي مدى تحقق هذا الادعاء، خصوصًا في ظل هيمنة علاقات القوة غير المتكافئة بين الثقافة العربية والثقافة الغربية؟ وهذا يستدعي الحاجة إلى نقد النقد لتقييم أثر النظريات الغربية في تشكيل الرؤية المنهجية للنقاد العرب، وتحديد مدى أصالتها المعرفية والثقافية، أو على العكس، تحديد مدى تبعيتها الذهنية للآخر، وإعادة إنتاج مسلمات المركزية الثقافية الغربية وإسقاطها على الأدب العربي.

– إن نقد النقد يمكّننا من تنظيم مسار هذا التراكم النوعي الذي عرفه النقد العربي المعاصر واستكشاف تحولاته، وتشخيص عوائقه، بما يوفره لنا من تحليلات ومعايير

دقيقة في تقييم نتائجه بطريقة موضوعية تراعي شروط السياق الثقافي العربي، المادية منها والثقافية، وتجنّبنا السقوط في أوهام الحداثة المزيفة التي تكتفي باستنساخ منجزات الآخر وتطبيقها على الأدب العربي بطريقة آلية تخلو من روح الإبداع والأصالة والابتكار.

– التأثير الإشكالي للمثاقفة على الخطاب النقدي العربي؛ فلا أحد يمكن أن ينكر أن المثاقفة تشكّل عنصرًا تكوينيًّا حرجًا في بنية الخطاب النقدي العربي؛ فهي تُعَدُّ موردًا أساسيًّا يستعير منه أدواته ومفاهيمه النقدية في مقاربة الأدب العربي؛ والأخطر من ذلك أن هذا التأثير لا يقف عند حدود تطبيق الأدوات والمفاهيم النقدية المستعارة في مستوى التحليل النصي، بل يتجاوزه في كثير من الأحيان إلى تشكيل الرؤية الفكرية التي ينظر بها الناقد العربي إلى ثقافته وإلى الأدب العربي وإلى تاريخه وتراثه، ما يساهم في ترسيخ مسلَّمات المركزية الثقافية الغربية في الوعي النقدي والثقافي العربي.

هذه التحديات المعرفية والثقافية تستدعي ضرورة تفعيل خطاب نقد النقد في الفكر النقدي الأدبي العربي، ولا سيما في ظل وجود تفاوت كبير بين الإنتاج في نقد النقد والنقد الأدبي؛ فالتراكم النوعي الكبير الذي يعرفه منجز النقد الأدبي العربي لا يوازيه إنتاج ملحوظ في نقد النقد، يواكبه بالنقد والمساءلة والفحص، من أجل تقييم إنجازاته ونتائجه، وإبراز دوره في خدمة الأدب العربي وتطوير آليات القراءة النقدية في سياق تاريخ ثقافي لا يزال فيه النقد الأدبي العربي يعاني **إغراء الآخر** في بناء هويته الثقافية.

نحو تصور جديد لنقد النقد

في ضوء هذا التصور الجديد الذي يقترحه الكاتب، يشكّل نقد النقد استراتيجيا في القراءة النقدية، يتحدد موضوعها في تفكيك الطريقة التي يُبْنَى بها الخطاب النقدي، سواء خطاب نقد النقد أو خطاب النقد الأدبي أو التنظير الأدبي. ويجري هذا التفكيك للخطاب انطلاقًا من ثلاثة مستويات تحليلية ونقدية متضافرة: إبستيمولوجية وهرمينوطيقية وتفكيكية، حيث يتناول المستوى الإبستيمولوجي عناصر الرؤية المنهجية، أي كيف تُبْنَى نظريًّا وتتجسد إجرائيًّا في قراءة النصوص، ويستقصي المستوى الهرمينوطيقي ما يشكل رؤية للعالم في الخطاب قد تكون صريحة أو

ضمنية، وتتحكم في تفسير الناقد للعمل المدروس وتأويلاته، ويستنطق المستوى التفكيكي نظام الحقيقة في الخطاب، أي "ما يُعتبر صحيحًا داخل نسق من القواعد لخطاب بعينه"، ويجري بموجبه استبعاد ما يعارض هذا النظام من موضوعات وقضايا وخطابات مغايرة.

وقد سلك الكاتب استراتيجيا مزدوجة في بناء هذا التصور الجديد لوظيفة نقد النقد: أولًا قام بمراجعة نقدية لممارسة نقد النقد في تاريخ النقد العربي؛ الشيء الذي مكّنه من تحديد ممكنات هذه الممارسة وتشخيص عوائقها ومفارقاتها في الآن ذاته، واقتراح حلول ملائمة لتجاوزها. ثانيًا، انطلاقًا من هذه المراجعة النقدية لواقع نقد النقد العربي، اقترح تصوره الجديد لنقد النقد، بالاعتماد على مرجعيات متعددة، أهمها حقل النقد الأدبي ونظرية الخطاب عند ميشيل فوكو، ونظرية النص عند جاك دريدا، ونظرية "الكاوس" (Chaos) أو "العماء"، والنقد ما بعد الكولونيالي. والجدير بالتأكيد أن النظرية في هذا التصور تعمل في صيرورة الممارسة النقدية، أي في سياق قراءة النصوص النقدية وتفكيك خطاباتها، وليس بوصفها نسقًا متعاليًا سابقًا على فعل القراءة النقدية.

في ضوء تصوُّر الكاتب نقد النقد على أنه استراتيجيا في القراءة النقدية موضوعها تفكيك الخطاب، قام بتحليل الرؤية المنهجية وتفكيك اشتغالها في نماذج من نقد النقد والنقد الأدبي العربيين، وذلك عبر ثلاثة أقسام تحمل عناوين الأيديولوجيا والإبستيمولوجيا والتأويلية، وبالتركيز على النصوص النقدية وتحليل ممارستها المنهجية وتفكيك آلياتها في إنتاج المعرفة النقدية وتأويل موضوعاتها.

في القسم الأول المعنون بـ "الأيديولوجيا"، عالج الكاتب حدود الإبستيمولوجي والأيديولوجي في منهج نقد النقد العربي. وانتهى إلى التمييز بين مقاربتين: مقاربة أيديولوجية تقوم على أدلجة وظيفة نقد النقد بمحاكمة النقاد سياسيًّا على حساب الجانب المعرفي والمنهجي، ومقاربة سوسيولوجية جدلية تفسر تكوُّن الخطاب النقدي وترصد تحولاته المنهجية بالتركيز على رصد العوامل المادية والأيديولوجية المؤثرة في تشكيل الرؤية المنهجية للنقاد، وتحاول تحقيق توازن منتج بين التحليل السوسيولوجي والتحليل الإبستيمولوجي، من دون إغفال الجانبين المعرفي والمنهجي في الخطاب النقدي.

وفي القسم الثاني المعنون بـ"الإبستيمولوجيا"، تناول الكاتب النقلة المنهجية التي عرفها متن نقد النقد ومتن النقد الأدبي في الخطاب النقدي العربي، خصوصًا مع بداية صعود البنيوية في الخطاب النقدي العربي منذ بداية ثمانينيات القرن العشرين، وهي الفترة التي عرفت ازدهارًا في توظيف المناهج النصية والبنيوية في دراسة الأدب العربي. وعمل الكاتب على كشف ممكنات هذا الإبدال النقدي الجديد في النقد العربي، وتشريح حدوده ومفارقاته في الآن ذاته.

في القسم الثالث المعنون بـ"التأويلية"، تناول الكاتب إشكالية العلاقة بين النقد والتأويل وحدود التأويل في القراءة النقدية، ولا سيما بعد سوء السمعة الذي حلّ بالتأويل نتيجة هيمنة البنيوية على النقد الأدبي. كيف تعامل النقد العربي مع إشكاليات تأويل النصوص؟ خصوصًا إشكالية التعددية وانفتاح النصوص على احتمالات متعددة في القراءة والتأويل؟ هل التعددية تعني اللانهائية؟ وهل لها حدود أم أنها مفتوحة على لانهائية التأويلات؟ كيف ساهم التأويل في تجديد المقاربة البنيوية للنص العربي، من خلال بعث الحياة في النصوص ومعانيها وسياقاتها؟

النتائج والخلاصات

في الخاتمة تناول الكاتب ما اعتبره مشكلة أساسية يعانيها النقد العربي، وهي مشكلة **المثالية الثقافية** التي تتجلى في غياب الوعي النقدي بالبُعد السياسي للنظرية الأدبية؛ حيث لاحظ أن النقاد العرب يتعاملون في معظمهم مع النظريات الأدبية الغربية على أنها نماذج "صورية" و"كونية" و"إنسانية"، لا تطرح مشكلات سياسية وحضارية في تبنّيها وتوظيفها في قراءة الأدب العربي. وبهذا التجريد الشكلاني تُنزَع من سياقها التاريخي الذي تشكلت فيه ومارست وظائفها المعرفية التي لم تكن معزولة عن إرادة القوة والهيمنة التي تحرك الثقافة الغربية، وتتحكم في علاقتها بالثقافات غير الغربية. فلا يمكن أن تكون النظرية الغربية "حيادية" في وضعية مثاقفة بيننا وبين الغرب تتحكم فيها علاقات القوة غير المتكافئة سياسيًّا واقتصاديًّا بين الثقافة العربية والثقافة الغربية. فإذا كان الناقد العربي لا يعي هذا الوضع بشروطه التاريخية والمادية والسياسية، فإنه لن يعمل سوى على إعادة إنتاج مسلَّمات المركزية الثقافية الغربية ذات الدوافع الاستشراقية والكولونيالية في قراءة الأدب العربي، وإسقاط تاريخانية

الثقافة الغربية على تاريخانية الثقافة العربية. ويحصر الكاتب بعض تجليات هذه المثالية الثقافية في ما يلي:

– اختزال فعل "التنظير" إلى مجرد إطلاع الناقد على نظرية جديدة مستعارة من النظريات الغربية، والتعريف بمفاهيمها و"تطبيقها" على النص العربي، وادعاء الناقد أنه بهذا الفعل النظري "يؤسس" نظرية جديدة في الأدب العربي، مع أن الأمر لا يتجاوز عتبة العرض النظري لتصورات ومفاهيم نظرية جاهزة، موجودة سلفًا، في حين أن التأسيس يقتضي ابتكار نظرية جديدة واستكشافها بحيث تكون قادرة على حلّ المشكلات والتحديات في السياق المعرفي والثقافي الذي تعمل فيه لتمارس وظيفتها.

– الاعتقاد الواهم بأن جِدَّة المقاربة النقدية تقترن آليًّا وتلقائيًّا بجدة النظرية، لدرجة أن وهم الريادة لدى بعض النقاد العرب أصبح يقاس بمدى السبق الزمني الذي يحققه إزاء زملائه في الاطلاع على آخر نظرية أو مفهوم صادر في الفكر النقدي والثقافي الغربي، ولا يجد حرجًا في التباهي بأنه أول من نقل هذا المفهوم أو النظرية من المصادر الغربية إلى الثقافة العربية. هذا الشكل الاختزالي المتهافت من التلقّي يشير إلى غياب الوعي النقدي الأصيل، وغلبة منطق الـ"موضة" الاستهلاكي على تعاملنا مع النظريات الغربية.

– التعامل مع النظرية على أنها غاية في ذاتها، حيث يتركز هَمُّ الناقد العربي على إثبات "صحة" النظرية وقيمتها وجِدَّتِها، وتتحول النصوص إلى مجرد مواد مخبرية للبرهنة على قيمة النظرية. في هذا الفهم المثالي تُختزَل قيمة الجدَّة إلى مجرد سبق زمني للناقد العربي في التقاط آخر صيحة نقدية في النظريات الغربية، وهذا ما يفسر حالة السيولة النظرية الفائضة في كتب التنظير العربي، خصوصًا تلك التي ظهرت في حقبة انتشار البنيوية في النقد العربي منذ بداية الثمانينيات، ولا تزال مستمرة.

– إضفاء سلطة معرفية وثقافية على النظرية الغربية، بحيث تَحوَّلَ اعتماد النظريات الغربية والمناهج النقدية الغربية إلى أداة لممارسة التفوق والغطرسة الثقافية على الآخرين من النقاد والقراء، وبناء شرعية مزيفة في حقل النقد الأدبي، وانتزاع الامتياز في المؤسسة النقدية والثقافية، من دون امتلاك الكفاءة والاستحقاق والجدارة.

في مواجهة هذه التحديات، يشدد الكاتب على أهمية الوعي النقدي في الثقافة العربية لجهة أنه لا يكتفي باستقبال النظريات والمناهج النقدية الغربية وتطبيقها على الأدب العربي، وإنما يسائلها ويستنطق سياقاتها من موقع الأسئلة والرهانات التي تشغل الثقافة العربية، وفي ضوء الشروط المعرفية والمادية التي تتحكم في ديناميتها. ويقترح التمييز بين ما يسمّيه خطاب التنظير التابع (Subaltern) والنظرية الغربية بوصفها خطابًا مهيمنًا للمركز الغربي، وأداةً من أدوات الهيمنة الثقافية الغربية على العالم. ويقصد بالتنظير التابع الممارسةَ النظرية والنقدية في الثقافات التابعة التي تعرضت للاستعمار الغربي ولا تزال تعاني الهيمنةَ الغربية، الثقافية منها والسياسية والاقتصادية. هذا السياق الثقافي يعطينا فكرة عن الوضع الإشكالي لخطاب التنظير التابع معرفيًّا وثقافيًّا وسياسيًّا؛ فهو يتموضع على حدود ثقافة غربية مركزية مهيمنة وثقافة تابعة مهمشة، في علاقة تراتبية مع الخطاب الغربي المهيمن؛ لذلك، يكون مهدَّدًا بخطر إعادة إنتاج علاقات القوة الضمنية في النظرية الغربية، إذا لم يتحلَّ بالوعي النقدي التحرري. وعلى هذا الأساس يحدد استراتيجية التنظير التابع في مواجهة الخطاب الغربي المهيمن وفق مسارين متوترين: مسار معرفي يهدف إلى بناء نماذج في التفكير والقراءة ملائمة لأنساق التمثيل في الثقافة المحلية، ومسار سياسي يهدف إلى إنتاج معرفة متحررة من بِنى المركزية الثقافية الغربية، والمساران متداخلان ويعملان بشكل متزامن.

ومن مظاهر الوعي النقدي في التنظير التابع إدراكُه علاقات القوة التي تحرّك النظرية الغربية. وانطلاقًا من هذا الإدراك، يعمل على تقويض بِناها المركزية في إنتاج المعرفة وأنساق التمثيل، ويؤسس على أنقاضها بدائل معرفية تحررية ملائمة، لا تعيد إنتاج علاقات القوة في المركزية الثقافية الغربية؛ ففي التنظير التابع لا تنفصل المعرفة عن القوة، ولا تنفصل النظرية عن الممارسة، ولا ينفصل الفكر عن الواقع والتاريخ.

بهذا الوعي النقدي السياسي، لا يمثّل التنظير التابع في المجتمعات ما بعد الكولونيالية مجرد تفكير نظري مثالي، معزول عن شروط الواقع التاريخي وعلاقات السلطة؛ إنه ممارسة تفكيكية للنظرية الغربية تتأسس على استراتيجيا خطابية مضادة للافتراضات المعيارية في النظرية الغربية وتضميناتها الأيديولوجية، يجري فيها بناء ممارسات جديدة في القراءة النقدية، طباقية وهجينة ونقضية، تتفاوض بشأن

حيازة قوة التمثيل وامتلاك الصوت والخطاب، بغرض الخروج من وضع الإسكات المعرفي الذي فرضه الغرب على الثقافات المستعمَرَة، وإسماع صوتها وتمثيل تجاربها الخاصة التي جرى تهميشها واستبعادها.

لكل هذا، يعتبر المؤلف كتابه **نقد النقد: من النقد الأدبي إلى تحليل الخطاب** مساهمةً في بناء هذا الوعي النقدي التحرري، الذي بقدر ما يؤمن بضرورة الانفتاح على الآخر، فإنه يشدد على ضرورة "النقد المزدوج" للذات والآخر؛ ويكون واعيًا بعلاقات القوة التي ترسم حدود الجغرافيا الثقافية بين الذات والآخر وحركية انتقال النظريات والمفاهيم في هذه الجغرافيا التي تُقسِّم العالم إلى مركز مهيمن وأطراف هامشية، وهي المهمة النقدية التي يمكن أن يضطلع بها نقد النقد إذا ما تملّك شروط التنظير التابع.

مقدمة

في الحاجة إلى الوعي النقدي

إن أي شكل من أشكال المعرفة التي ينتجها الإنسان، لا يمكن إلا أن يكون نقديًّا، في علاقته بذاته وبالمعرفة والعالم؛ فالإنسان لا يفكر من باب الترف واللعب والاستمتاع بحلّ الألغاز، بل من أجل تحسين شروط وجوده وعيشه الجمالية والاجتماعية والاقتصادية. وفي هذا الطموح نحو التغيير والارتقاء الروحي والمادي، تتجاوز المعرفة النقدية أشكال التفكير وأنماط التنظيم الاجتماعي السائدة في المجتمع، وتعمل على استشراف آفاق جديدة توسع مجال حرية الإنسان وقدرته على الإبداع والتخيل. وبحكم هذه الرغبة في تجاوز إكراهات الواقع وقيوده، إن كل ممارسة فكرية، في أي مجال من مجالات المعرفة الإنسانية تتخذ بالضرورة موقفًا نقديًّا إزاء أنظمة المعرفة والسلطة التي تتحكم في الواقع وتعمل على المحافظة على الوضع القائم من أجل استدامة مصالحها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وبين إرادة القوة وإرادة المعرفة، تتعين المعرفةُ قوةً مستنيرةً مضادةً لجميع أشكال السلطة العمياء.

من هذا المنظور النقدي، فإن كل معرفة جذرية وطليعية هي بالضرورة الإبستيمولوجية والأنطولوجية معرفة نقدية، أي معرفة لا تكتفي بوصف الوقائع وجردها وتصنيفها في بيانات وضعية كمية تفصل المعرفة عن المجتمع والتاريخ البشري، بل تستنطق المنظور الذي يرتب هذه الوقائع ويفسرها، وتضعه موضع النقد والمساءلة، وتكشف موقعه داخل تراتبية علاقات القوة غير المتكافئة. وبسبب هذا النزوع النقدي التفكيكي، فإن كل مشروع فكري نقدي يسعى للتغيير واستشراف مسالك جديدة للمعرفة وصيغ للعيش أكثر تحررًا من الأشكال السائدة،

يصطدم – بالضرورة – بمقاومة السلطة والقوى المحافظة التي تستفيد من الوضع المعرفي والاجتماعي القائم.

هذا الموقف النقدي من الذات والمعرفة والواقع، وهو الذي يؤمن دائمًا بوجود خيارات بديلة مهما اتسعت وترسخت نظم الهيمنة الاجتماعية في حقول المعرفة ومفاصل المجتمع، يشكل – في رأيي– طبيعة الوعي النقدي الذي ينبغي أن يميز كل ممارسة معرفية تسعى لتغيير أشكال المعرفة وأنماط الكينونة المألوفة. بهذا المعنى، يمكن القول إن النقد، بوصفه نشاطًا معرفيًّا واجتماعيًّا، ينتمي بطبيعته إلى ذلك الهامش الممكن داخل المجتمع الذي يبقى بعيدًا عن هيمنة السلطة، وينطوي على إمكانية صياغة خيارات إنسانية بديلة، تحرر الإنسان من القيود التي تجثم عليه، وتشلّ قدرته على التفكير والتخيل.

إن هذه العلاقة المتوترة بالواقع الثقافي والاجتماعي، تكشف لنا الطبيعة الجدلية للوعي النقدي الذي يرفض الخضوع للأعراف والنظم المفروضة، والتحول إلى أداة من أدوات الهيمنة الثقافية التي تبرر الواقع القائم. لذلك، يختار النقد التموضع في هوامش الثقافة المهيمنة، والعمل في البؤر الناشئة التي تتمتع بقدر من الاستقلالية والإرادة الحرة، وتطوير لغة نقدية جذرية، تفكر بطريقة مختلفة ومضادة للخطاب المهيمن.

هكذا، على خلاف أشكال المعرفة المحافظة التي تنزع إلى الثبات والاستمرارية، باتّباع آليات التقليد والحفظ في مناهجها، من أجل استدامة مصالح النظام القائم، يتميز الوعي النقدي بوضعٍ معرفي جدلي مستنير؛ فهو بقدر ما يتشكل ويمارس وظيفته النقدية في ظل شروط وضغوط النظام الثقافي السائد، فإنه يتخذ مسافة نقدية من الأنساق والمعايير التي يفرضها هذا النظام على الفكر والثقافة والسلوك في الحياة الأكاديمية والعلاقات الاجتماعية. وهذا يعني أن الوعي النقدي في انفصاله عن الوعي الثقافي السائد، لا يمثل حالة هروب من الواقع على شاكلة النماذج الرومانسية المتعالية أو المثالية المجردة التي لا تميز بين الحقيقة والوهم؛ لأنه يعي تمامًا شروط الواقع الموضوعية التي تكبح إرادة التغيير، لكنه يدرك في الآن نفسه وجود خيارات بديلة؛ ومن ثم يشتبك مع إكراهات الواقع من منطلق امتلاك الوعي المستنير والمعرفة المتمكنة من أدواتها في الفهم والتحليل والتفكيك، وليس الوهم الحالم، المنفصل عن حقائق الواقع.

انطلاقًا من هذا المنظور الذي يشدد على تاريخانية المعرفة وسياساتها الاجتماعية، لا يكتفي الفكر النقدي بوصف الوقائع وكأنها بِنى معرفية محايدة في العالم، وإنما يتجاوزه إلى تفكيك أنساق المعرفة والسلطة المتحكمة في الواقع، وتعرية عوامل النكوص فيها التي تكبح طاقات الإبداع الكامنة في الإنسان التي راكمها بجهوده العقلانية في البناء والتطور عبر التاريخ. وإذا كان من مهمات المعرفة الإنسانية تنمية قدرات الإنسان على تحصيل المهارات العلمية التي تمكّنه من تطوير أدوات البحث العلمي والاستكشاف وصقلها، فإنه ينبغي ألّا تكتفي بهذه الوظيفة التقنية، على الرغم من أهميتها، بل عليها أن تتجاوزها إلى تنوير الوعي بشروط الواقع التي تتحول فيها المعرفة بحكم علاقات السلطة إلى أداة للهيمنة والاستغلال والقهر، "و تحرير الإنسان من القيود التي تجثم عليه"[1]، سواء القيود المعرفية التي تفرض الثقافةُ الأكاديمية بواسطتها على الباحث طرائق المعرفة المعتمدة "الصحيحة" أم القيود الاجتماعية التي يجب أن ينضبط لها في سلوكه الفكري والاجتماعي؛ فالسلطة، كما بيّن فوكو في تشريحه آلياتها العقابية والقمعية، ينتشر أثرها في جميع مفاصل المجتمع أفقيًّا وعموديًّا.

وإذا كان الوعي النقدي يتفاعل مع العالم المادي للوقائع بطريقة نقدية جدلية، فإنه لا يمثل مجرد **انعكاس سلبي** لشروط الواقع المادية، كما تدّعي الماركسية المبتذلة، ولا هو مجرد **تسام** على الواقع، كما تدّعي الفلسفة المثالية، يتعالى على الصراعات الاجتماعية التي تخترق طبقات المجتمع، ويتموضع في نقطة أرخميدية محايدة، بل هو فاعل اجتماعي يتحرك جدليًّا في المسافة المتوترة بين الفكر والواقع، بين الروح والتاريخ، بين الحرية والضرورة. وبقدر ما يطور وعيه وأدواته المعرفية في الاستجابة النقدية لإكراهات الواقع الاجتماعي، فإنه لا يخضع لشروطه المادية ولا لإغراءاته بطريقة حتمية تجرده من قدرته على الفعل والنقد، وذلك بفضل ما يتمتع به من معرفة نقدية وجدلية وإرادة قوية في مقاومة ضغوط الواقع وإغراءات السلطة.

بهذا الشكل الدينامي من الانتساب الاجتماعي، يتموضع الوعي النقدي جدليًّا في علاقته بالوعي الجمعي والثقافة السائدة؛ فلا هو منفصل تمامًا عن المجتمع

(1) ماكس هوركايمر، **النظرية التقليدية والنظرية النقدية**، ترجمة مصطفى الناوي، مراجعة مصطفى خياطي (الدار البيضاء: عيون المقالات، 1990)، ص 77.

وصراعاته الأيديولوجية، بما يجعله وعيًا مثاليًّا غير مدرك حقائق الواقع، ولا هو خاضع لشروط الواقع كما تمليها الثقافة السائدة، بما يجعله وعيًا مستلَبًا. إنه بحكم طبيعته النقدية التي لا تقبل التسليم بشروط الواقع المفروضة، يجسد حالة دينامية من الوعي الاجتماعي الفاعل تاريخيًّا، فيترجم فاعليته التاريخية من خلال ممارسة وظيفته في الكشف والنقد والتفكيك، ومعارضة جميع النظم المعرفية والاجتماعية التي تجرّد الإنسان من حريته، وتقمع رغبته في التحرر من الضرورة الطبيعية والقهر الاجتماعي، لكن بشرط أن يكون واعيًا بماهيته المعرفية ووظيفته النقدية، وليس مجرد نقد أيديولوجي سياسي:

"فالنقد نقدٌ في شكّه في المفاهيم الإجمالية [...] ذلك بأن النقد يجب عليه أن يثري الحياة وأن يعارض كل شكل من أشكال الطغيان والهيمنة والإساءة؛ وتتلخص أهدافه الاجتماعية في المعرفة الطوعية التي تنتج لخدمة الحرية الإنسانية"[2].

إن ما نقصده بالمعارضة هنا ليس مجرد المعارضة السياسية التي تعني الاصطفاف السياسي مع الآخر/ الخصم أو ضده في المواقف السياسية، بل المعنى الخطابي (Discursive) التفكيكي الذي يفيد بأن النقد يعمل بطريقة **انعكاسية** على الذات (self-reflexive)، يكون فيها ذاتًا وموضوعًا للنقد في آن واحد؛ منتجًا للمعرفة وناقدًا شروط إنتاج هذه المعرفة، أي ناقدًا لجميع علاقات السلطة التي تنطوي عليها كل معرفة. وعلى أساس هذا الازدواج الخطابي الذي يميز النقد في علاقته بذاته، لا يمكن أن نختزل النقد في موقفه المعارض إلى الصيغة العقائدية للمعارضة الأيديولوجية: مذهب ضد مذهب أو موقف سياسي ضد موقف آخر معارض؛ ذلك أن النقد في نزوعه "إلى التساؤل والتشكك على نحو راديكالي"[3] يشكل استراتيجيا خطابية مضادة لجميع أشكال النظم العقائدية، المعرفية والأيديولوجية، التي تنحو إلى الشمولية والإقصاء. وفي الوعي النقدي، كل شيء قابل وموضوع للنقد، بما فيه النقد نفسه.

(2) إدوارد سعيد، **العالم والنص والناقد**، ترجمة محمد عصفور، مراجعة وتقديم محمد شاهين (بيروت: دار الآداب، 2017)، ص 66.

(3) المرجع نفسه، ص 62.

والكتاب هذا هو محاولة مبنية على متابعتي النقد العربي وقراءته ومحاورته نقديًّا، مع التركيز على أهمية الوعي النقدي ودوره المحوري في مجال النقد الأدبي الذي ما عاد محصورًا في نطاق النصوص الأدبية والنقدية، وإنما توسّع ليشمل النصوص والممارسات الثقافية بأنظمتها السيميائية ووسائطها الثقافية المختلفة. وإني أتصور أن نقد النقد يمثّل التجسيد العملي للوعي النقدي في حقل النقد الأدبي والثقافي، سواء في وظيفته النقدية أو في وظيفته التنظيرية. وتزداد الحاجة الملحة إلى الوعي النقدي في الخطاب النقدي العربي، لأنه يوجد في وضع معرفي إشكالي تمزقه شبكة معقدة من التوترات المعرفية والضغوط الثقافية والاجتماعية التي تؤثر في أداء وظيفته المعرفية بطريقة ملائمة إبستيمولوجيًّا، ومُنْتِجَة وفاعلة تداوليًّا، تمكّنه من إنتاج معرفة نقدية بالنص العربي تستجيب لشروط إنتاجه وتلقيه في السياق الثقافي العربي.

ترتبط هذه التوترات المعقدة في جانب أساسي منها بعملية المثاقفة التي تشكّل عاملًا حرجًا في تشكيل المرجعيات النظرية للنقد العربي ومقارباته المنهجية وجهاز مفاهيمه، وبالتالي في تشكيل رؤيته للأدب العربي والذات والتراث والهوية ومستقبل الثقافة العربية. هذه الرؤية للذات – كما يؤكد كثير من البحوث النقدية في سوسيولوجيا الثقافة[4] – تهيمن عليها المرجعيات الغربية المستعارة، ما يؤدي إلى تكريس وضع "التبعية الذهنية" للغرب.

ويزداد الأثر السلبي للمرجعيات المستعارة في النقد العربي والثقافة العربية خطورة، في سياق نظام دولي يتسم بعلاقات قوة غير متكافئة ثقافيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا بين الغرب والمجتمعات غير الغربية، تخدم مصالح الغرب السياسية والاقتصادية الذي يعمل على الإبقاء على هيمنته على العالم من أجل استدامة مصالحه. وإذا لم يكن الناقد العربي واعيًا في ممارسته النقدية بعلاقات القوة غير المتكافئة التي تنظم علاقته بالنظريات الغربية، فإنه يساهم – بشكل واع أو غير واع – في استدامة الهيمنة الثقافية الغربية، وفي الإبقاء على حالة الاغتراب التي تعزله عن سياقه الثقافي والاجتماعي.

(4) يُنظر: عبد الله العروي، **الأيديولوجيا العربية المعاصرة** (الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العربي، 1995)؛ عبد الله إبراهيم، **الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة: تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة**، المطابقة والإختلاف (الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العربي، 1999).

في هذا السياق الثقافي، تبرز أهمية الوعي النقدي بوصفه خاصية محددة لنقد النقد، في أنه يهتم بالبحث في الشروط التي تجعل المعرفة النقدية ممكنة؛ الشروط النسقية الخاصة بحقل معيّن في دراسته لموضوعه، والشروط السياقية/ التداولية التي يجري فيها إنتاج المعرفة، وتؤثر في أداء وظيفتها وتحديد فاعليتها الإبستيمولوجية والاجتماعية.

وإذا كان نقد النقد العربي والنقد منذ أواخر الثمانينيات يدرك أهمية شرط المعرفة المنهجية في إنتاج الخطاب النقدي، فالملاحظ أنه يركز على الشرط الإبستيمولوجي (الشروط الداخلية) في نقد النظريات الغربية، ويتجاهل شروط السياق الثقافي التي تنظم عملية التفاعل بين النقد العربي والنظريات الغربية التي تتميز بهيمنة علاقات القوة غير المتكافئة بين الثقافة العربية والثقافة الغربية. وعلى الرغم من أهمية هذا النقد الإبستيمولوجي، يظل في نظرنا غير كاف، ما لم يجرِ تعزيزه بتحليل شروط الإنتاج والتلقّي التي يجري فيها إعادة إنتاج النظريات الغربية في الحقل الثقافي العربي. وهنا يتحدد دور الوعي النقدي في فهم التحديات الثقافية والسياسية والاجتماعية التي تواجه النقد العربي المعاصر والثقافة العربية، من أجل التخفيف من الأثر السلبي للمثاقفة على رؤية الناقد العربي لذاته وثقافته وموقعه في العالم من التيارات الفكرية والنظريات الأدبية والثقافية التي تتنافس وتتجدد وتتطور بإيقاع سريع، حيث أصبح من الصعب التحكم في مساراته بسبب الرياح العاتية للعولمة والثورة المعلوماتية التي تكتسح الفضاءات الثقافية غير عابئة بالحدود الوطنية، وتسيطر على أنظمتها التمثيلية والدلالية وعوالمها الرمزية والسيميائية في دورة جديدة أكثر تقدمًا وتطورًا للإمبريالية الثقافية التي تستغل تكنولوجيات الاتصال الجديدة الأكثر تطورًا وذكاء في فرض قيم الغرب والسيطرة على الأسواق الثقافية في العالم.

يكشف لنا هذا التحدي الثقافي والسياسي حجم المسؤولية التي تقع على مهمة النقاد العرب في مواجهة هذه القضايا والإشكاليات التي لا تنحصر في مجال تخصصهم الأدبي، وإنما تتجاوزه إلى مجالات ثقافية واجتماعية وسياسية، تشتبك فيها أسئلة النقد بإشكاليات السلطة والهوية الثقافية والاختلاف الثقافي والعولمة، وبآليات إنتاج المعرفة في المشهد العالمي الذي يسيطر عليه الغرب بإمكانياته الهائلة،

أي مجال الاقتصاد السياسي للمعرفة المعاصرة، الذي يعمل ويبسط هيمنته من خلال السيطرة على آليات الإنتاج:

- من يملك الإنتاج المعرفي ويسيطر عليه؛

- آليات توزيع المعرفة وانتشارها؛

- آثار أنماط السيطرة على خصائص الإنتاج المعرفي والثقافي، ودورها في استدامة علاقات القوة غير المتكافئة بين الغرب وبقية العالم.

بالإضافة إلى ما طرحته من حجج معرفية وثقافية وسياسية تؤكد الحاجة الملحة إلى الوعي النقدي في تلقّي النظريات الغربية في النقد الأدبي والفكر العربيين عمومًا، من أجل إنتاج معرفة نقدية تتسم بالجدة والأصالة والفاعلية الثقافية، فإن الوضع الإشكالي للنقد العربي يضاعف هذه الضرورة المعرفية للوعي النقدي، وذلك للأسباب التالية:

- التراكم المهم الحاصل في المنجز النقدي العربي، خصوصًا منذ ثمانينيات القرن العشرين التي شهدت انفتاح النقد العربي بشكل قوي على المناهج الجديدة التي انبثقت عن البنيوية، من سرديات وسيميائيات وتحليل الخطاب وعلوم النص. يستلزم هذا التراكم قراءة ما أُنجز من مشاريع نقدية تصنّف نفسها في خطاب النظرية لا في مجرد خطاب النقد التطبيقي الذي يهتم بقراءة النصوص وتأويلها، وتضع ضمن أهدافها بناء نظرية للأدب العربي أو لأحد أنواعه الأدبية (الرواية، القصة القصيرة، الشعر، المسرح...) مستمدة من النظريات الغربية، ومدى تحقق هذا الادعاء، ولا سيما في ظل هيمنة علاقات القوة غير المتكافئة بين الثقافة العربية والثقافة الغربية، الأمر الذي يستدعي الحاجة إلى نقد النقد لتقييم أثر النظريات الغربية في تشكيل الرؤية المنهجية للنقاد العرب، وتحديد مدى أصالتها المعرفية والثقافية أو على العكس تبعيتها الذهنية للآخر وإعادة إنتاج مسلَّمات المركزية الثقافية الغربية وإسقاطها على الأدب العربي.

- إن نقد النقد يمكّننا من تنظيم مسار التراكم النوعي الذي عرفه النقد العربي المعاصر واستكشاف تحولاته في تمفصلاتها التطورية والبنيوية، وتشخيص عوائقه، بما يوفر لنا معطيات ومعايير دقيقة في تقييم نتائجه بطريقة موضوعية تراعي شروط

السياق الثقافي العربي، المادية والخِطابية، وتجنّبنا السقوط في وهم "المرايا المحدَّبة" التي تزيف الواقع من جهة أولى، وتفادي سياسات الهيمنة الثقافية للغرب من جهة أخرى. فهل استطاع النقد العربي أن يكسب رهان النظرية، أم أنه لم يتجاوز سقف إعادة إنتاج المرجعيات الغربية المستعارة التي ترسخ "التبعية الذهنية" للآخر؟

– بالاستناد إلى المنجز الفكري والثقافي العربي، يمكن القول إن الخطاب النقدي العربي منذ بداية عصر النهضة العربية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، أصبح يشكل أهم الخطابات المعرفية والفكرية في الثقافة العربية المعاصرة، وبالتالي يمارس دورًا أساسيًّا في صوغ خصائص الثقافة العربية المعاصرة ومضمونها وحركيتها. وإذا كانت الثقافة ليست مجرد نصوص أدبية وجمالية مفصولة عن الواقع الاجتماعي والسياسي، بل تمثل النظام السيميائي الذي يؤثر في سلوك الأفراد وتشكيل الهوية وبناء قيم المجتمع، ويعكس تطلعات أفراده وطبقاته إلى التقدم والنهضة والحياة الكريمة، يمكن أن نتصور حجم الأثر الاجتماعي للنقد الأدبي العربي في التغيير الثقافي والاجتماعي، وفي تشكيل الوعي. فهل استطاع النقد العربي أن يكسب معركة **المعرفة والتنوير** في المجتمع في آن واحد؟ وما حدود التداخل بين المعرفي والأيديولوجي في تشكيل خطابه ووظيفته؟ وما هي الكيفية التي انتهجها في تدبير توترات هذين النظامين في خطابه؟ كيف أثرت هذه التوترات في بناء معرفته من الناحية المنهجية، وتجاوز مساوئ الأَدْلَجَة؟

– التأثير الإشكالي للمثاقفة في الخطاب النقدي العربي، فلا أحد يمكن أن ينكر أن المثاقفة تشكّل عنصرًا تكوينيًّا حرجًا في بنية الخطاب النقدي العربي؛ فهي تُعَدُّ موردًا أساسيًّا لاستعارة النظريات الأدبية والمناهج النقدية في مقاربته للأدب العربي؛ والأخطر من ذلك أن هذا التأثير لا يقف عند حدود تطبيق الأدوات التحليلية، بل يتجاوزه في كثير من الأحيان إلى تشكيل الرؤية الفكرية التي ينظر بها الناقد العربي إلى ثقافته وإلى الأدب العربي وإلى تاريخه وتراثه التي قد تتسلل إليها مسلَّمات المركزية الثقافية الغربية.

هذه التحديات المعرفية والثقافية تشير كلها إلى ضرورة تفعيل خطاب نقد النقد في الفكر النقدي العربي، خصوصًا في ظل ما نلاحظه من تفاوت كبير بين الإنتاج في نقد النقد والنقد الأدبي، فالتراكم الكبير والنوعي الذي يعرفه منجز النقد الأدبي

العربي، لا يوازيه إنتاج ملحوظ في نقد النقد؛ يواكبه بالنقد والمساءلة والفحص، من أجل تقييم إنجازاته، وإبراز دوره في خدمة الأدب العربي وتطوير القراءة النقدية في سياق تاريخ ثقافي لا يزال النقد الأدبي العربي فيه يعاني إغراء الآخر في بناء هويته الثقافية؛ الشيء الذي يضعه في مواجهة شبكة معقدة من التحديات المعرفية والثقافية والسياسية.

لهذه الأسباب أرى أن الوعي النقدي بالمعنى المعرفي والفلسفي الذي تناولته أعلاه يشكل شرطًا أساسيًّا في مشروع بناء النقد العربي لنموذجه المعرفي الخاص، وتحريره من سياسات المركزية الثقافية الغربية في تفاعله الدينامي مع النظريات الغربية. هذا التفاعل ينبغي أن يتأسس – في نظرنا – على فهم تاريخي لشروط المثاقفة، الإبستيمولوجية والسوسيولوجية، وعلى تحليلٍ لديناميات علاقات القوة غير المتكافئة في عملية المثاقفة مع الغرب، من موقع ثقافي يعي تمام الوعي أثر بِنى القوة في تشكيل الخطاب، بما يمكنه من إزاحتها أو على الأقل تعديلها لمصلحته.

ومن أجل المساهمة في صوغ استراتيجية هذا الوعي النقدي في مجال نقد النقد والنقد الأدبي العربيين الذي يشكل الهدف الأساسي لهذا الكتاب، قمت بتنظيم البناء المعماري لهذا الكتاب في ثلاثة أقسام، إضافة إلى مدخل نظري وخاتمة.

في المدخل قدمت مقترحًا جديدًا لتعريف نقد النقد يتأسس على مرجعية نظرية الخطاب، وحددت موضوعه في تفكيك الطريقة التي يُبْنَى بها الخطاب النقدي، سواء أكان خطاب نقد النقد أم خطاب النقد الأدبي أم خطاب التنظير الأدبي... ويجري هذا التفكيك للخطاب انطلاقًا من ثلاثة مستويات تحليلية ونقدية متضافرة؛ إبستيمولوجية وهرمينوطيقية وتفكيكية. بهذا المعنى يشكّل نقد النقد في تصورنا استراتيجيا في القراءة متعددة الأبعاد.

ولقد قصدنا في هذه القراءة النقدية أن تتزامن النظرية بالنقد، بحيث تعمل النظرية خلال فعل الممارسة النقدية في استنطاقها للنصوص. وهكذا، قمنا بتحليل الرؤية المنهجية وتفكيك اشتغالها في نماذج من نقد النقد والنقد الأدبي العربيين عبر ثلاثة أقسام تحمل عناوين الأيديولوجيا والإبستيمولوجيا والتأويلية، بالتركيز على النصوص النقدية، وتحليل ممارستها المنهجية وتفكيك آلياتها في إنتاج المعرفة النقدية وتأويل موضوعاتها.

في القسم الأول المعنون بـ"الأيديولوجيا"، عالجت حدود الإبستيمولوجي والأيديولوجي في منهج نقد النقد؛ كيف يتفاعلان في تشكيل خطاب نقد النقد؟ ما هي التوترات التي تنتج عن صراعهما؟ كيف تعامل ناقد النقد العربي مع هذه التوترات في قراءته للمتن النقدي العربي؟

هذه الأسئلة حللتُ مستوياتها المنهجية ومرجعياتها الثقافية وناقشتها في فصلين؛ في الفصل الأول قاربت كتاب **مساهمة في نقد النقد الأدبي** لنبيل سليمان، بوصفه نموذجًا لأدلجة وظيفة نقد النقد؛ وفي الفصل الثاني تناولت كتاب **محمد مندور وتنظير النقد العربي المعاصر** لمحمد برادة الذي قدّم فيه مقاربة سوسيولوجية تجمع بين التحليل الأيديولوجي والتحليل الإبستيمولوجي للخطاب النقدي عند محمد مندور.

وفي القسم الثاني المعنون بـ"الإبستيمولوجيا"، تناولت النقلة المنهجية التي عرفها متن نقد النقد ومتن النقد الأدبي في الخطاب النقدي العربي، خصوصًا مع بداية صعود البنيوية في الخطاب النقدي العربي منذ بداية الثمانينيات من القرن العشرين، وعملت على التحرر من سطوة المناهج الأيديولوجية التي هيمنت في المراحل السابقة. والملاحَظ أن المناهج النقدية الجديدة التي تمخضت عن البنيوية تنوعت بين علوم النص وشعريات الخطاب واللسانيات والسيميائيات، لكن المشترك بينها أنها ركزت، بصورة مخالفة للمناهج الأيديولوجية، على تحليل عناصر الخطاب البنيوية وضوابطها المنهجية. فما هي عناصر هذه المقاربة الخطابية: منهجها، آليات التحليل، أهدافها؟ ومن جهة أخرى تناولت التحديات التي تواجه المقاربة الخطابية للنقد الأدبي العربي؛ على رأسها أن النقد لا يشكل نشاطًا خطابيًّا متجانسًا وموحدًا، بل مجموعة متداخلة من الخطابات تختلف في استراتيجياتها الخطابية ومقارباتها المنهجية وفي وظائفها؟ وقد تصل أحيانًا إلى حد التعارض الجذري.

هذه الإشكالات حللتُها وناقشتُها بدراسة نماذج من متن نقد النقد ومتن النقد الأدبي العربيين. في الفصل الثالث تناولت كتاب **سحر الموضوع** للناقد الأدبي حميد لحمداني، الذي اقترح فيه منهجية علمية عامة لنقد النقد، جسَّدَها طموحه البنيوي المتحمس إلى بناء "علم نقد النقد الأدبي". وفي الفصل الرابع تناولت كتاب **نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر** للناقد محمد الدغمومي الذي سعى فيه إلى

صوغ نموذج لنقد النقد، يطمح إلى أن يشكل إبستيمولوجيا نوعية خاصة بالنقد الأدبي. وفي الفصل الخامس درست كتاب **الخطاب النقدي عند طه حسين** لأحمد بوحسن. وفي الفصل السادس تناولت كتاب **نقد الرواية والقصة القصيرة بالمغرب** للدغمومي؛ والمشترك بين هذين الكتابين أنهما يستفيدان من تحليل الخطاب في بناء مقاربتهما المنهجية للخطاب النقدي. وفي الفصل السابع قاربت كتاب المؤلف نفسه **من السيرة الذاتية إلى التخييل الذاتي** لزهور كِرام، وفي الفصل الثامن تناولت كتاب **الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر: مستويات السرد** للناقد عبد الرحيم مودن؛ ويشترك هذان الكتابان في الرؤية المنهجية؛ إذ إنهما يوظفان منهج الشعرية في تحليل الخطاب الأدبي.

كيف تعامل النقد العربي مع الشعرية؟ كيف فكّر في التعارضات النظرية بين الشعرية والنقد وعمل على حلّها؟ هل اكتفى بتطبيق المقولات الشعرية على النص العربي أم عمل على تطويع النماذج والتصنيفات العامة للشعرية لتتلاءم مع السياقات التاريخية والثقافية التي تميز خصوصية النصوص العربية؟ كيف تتحدد العلاقة بين الشعرية والنقد في ممارسة النقد العربي؟ هل هي علاقة تكامل منتجة أم علاقة تعارض سالب أم علاقة إسقاط آلي؟ هذه الأسئلة حاولنا إضاءة أبعادها المعرفية وتفكيك إشكالياتها، من خلال استنطاق الكيفية التي وظف بها هذان الناقدان منهج الشعرية في قراءة النص الأدبي العربي.

في القسم الثالث المعنون بـ"التأويلية"، الذي يشتمل على ثلاثة فصول؛ تناولتُ إشكالية العلاقة بين النقد والتأويل وحدود التأويل في القراءة النقدية، خصوصًا بعد السمعة السيئة التي لحقت بالتأويل نتيجة هيمنة البنيوية على النقد الأدبي. وكان من نتائج هذه الهيمنة النظر إلى التأويل على أنه ممارسة ذاتية وأيديولوجية، تستند إلى الأحكام المسبقة في تفسير مضامين النصوص، ولا تعير اهتمامًا لبِنائها وأشكالها. وإذا كنا نسلم بعدم وجود قراءة محايدة، فالمطلوب هو بناء استراتيجيا دينامية يتفاعل فيها النقد والتأويل في القراءة النقدية بطريقة منتجة، تساهم في تعميق معرفتنا بالنصوص والاستمتاع بجمالياتها، ومعرفة العالم وتنوير الوعي والكينونة في آن واحد.

كيف تعامل النقد العربي مع إشكاليات تأويل النصوص، ولا سيما إشكالية التعددية وانفتاح النصوص على احتمالات متعددة في القراءة والتأويل؟ هل التعددية

تعني اللانهائية؟ هل للتعددية حدود أم أنها مفتوحة على لانهائية التأويلات؟ كيف ساهم التأويل في تجديد المقاربة البنيوية للنص العربي، من خلال بعث الحياة في النصوص ومعانيها وسياقاتها؟

هذه الأسئلة الإبستيمولوجية التي يتداخل فيها المعرفي والثقافي والأخلاقي في تشكيل الممارسة النقدية والتأويلية، تناولتها بدراسة ثلاثة أعمال نقدية. الأول يشمل مشروع علي حرب في التفكيك الذي بسطه في ثلاثيته **نقد النص** و**نقد الحقيقة** و**الممنوع والممتنع: نقد الذات المفكرة**، والثاني كتاب **عنف المتخيل في أعمال إميل حبيبي** لسعيد علوش، والثالث كتاب **آليات إنتاج النص الروائي** لعبد اللطيف محفوظ.

وفي الخاتمة تناولنا ما نتصور أنه يشكل أهم مشكلة يعانيها النقد العربي، وهي مشكلة المثالية الثقافية التي تتجلى في غياب الوعي النقدي بالبُعد السياسي للنظرية الأدبية، حيث يتعامل معظم[5] النقاد العرب مع النظريات الأدبية الغربية على أنها نماذج "كونية" و"إنسانية"، لا تطرح مشكلات سياسية وحضارية في اعتماد قراءة الأدب العربي وفي توظيف هذه القراءة. وبهذا التجريد تُنزع من سياقها التاريخي الذي تشكلت فيه ومارست وظائفها المعرفية التي لم تكن معزولة عن إرادة القوة والهيمنة التي تحرك الثقافة الغربية وتتحكم في علاقتها بالثقافات غير الغربية. فلا يمكن أن تكون النظرية الغربية "حيادية" في وضعية مثاقفة بيننا وبين الغرب تتحكم فيها علاقات القوة غير المتكافئة سياسيًّا واقتصاديًّا بين الثقافة العربية والثقافة الغربية. في هذا الوضع، إذا لم يكن الناقد العربي واعيًا بشروطه التاريخية والسياسية، فإنه لن يعمل إلا على إعادة إنتاج مسلمات المركزية الثقافية الغربية ذات المرجعية الاستشراقية والكولونيالية في قراءة الأدب العربي، وإسقاط تاريخانية الثقافة الغربية على تاريخانية الثقافة العربية.

(5) طبعًا لا نعني التعميم المطلق؛ لأن ثمة استثناءات تتمثّل في فئة من النقاد تعي البُعد السياسي للنظرية في خطابها النقدي والثقافي، لكن ما نقصده أن الظاهرة الغالبة على الخطاب النقدي في الواقع النقدي وفي ما ينجز داخل الجامعة من بحوث تغفل هذا البُعد السياسي.